﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (٣٨)

وساعةَ تسمع ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فهذا نداء خاص بمن آمن بالله ؛ لأن الله لا يكلف من لم يؤمن به شيئاً ، ولكنه كلف الذين آمنوا ، فلا يوجد حكم من أحكام منهج الله فيه تكليف لكافر أو غير مؤمن . ولكن أحكام المنهج موجهة كلها للمؤمنين . ولذلك ساعةَ تسمع : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ تعرف أن الله يخاطب أو يأمر من آمن به ؛ لأنك أنت الذى آمنت باختيارك ، ودخلتَ على الإيمان برغبتك ، فالحق سبحانه لم يأخذك إلى الإيمان قهراً ، ولكنك جئت للإيمان اختياراً ، ولذلك يقول سبحانه وتعالى لك : ما دُمْتَ قد آمنت بى إلهاً قادراً قيُّوماً ، له مطلق صفات الكمال ، فاسمع منى ما أريده لحركة حياتكَ.

ولا يحسب أحد أنه قادر على أن يدخل فى الإيمان ولا ينفذ المنهج [1] ، ولا يحسب أحد أنه قادر أن يضر الله شيئاً ، وسبق أن ضربنا المثل بالمريض الذى يختار أبرع الأطباء ، ولم يجبره أحد على أن يذهب إليه ، وأجرى الطبيب الكشف على المريض ، وحدد الداء وكتب الدواء ، ولكن المريض بعد أن خرج من العيادة أمسك بتذكرة الدواء ومزقها ، أو أنه اشترى الدواء ولم يتناوله . أيكون بذلك قد عاقب الطبيب أم عاقب نفسه ؟

(١) وفى هذا يقول عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

إن الطبيب لن يتأثر ولن يضره شيء مما فعله هذا المريض ، ولكنه هو الذى سيزداد عليه المرض ويقود نفسه إلى الهلاك ، وكذلك الإنسان إن لم يتبع منهج الله ، فإنه يضيع نفسه ويُغرقها فى الشقاء ؛ لأن الحق سبحانه قد وضع هذا المنهج وفيه علاج لكل أمراض الإنسان ، فإن عمل به الإنسان نجا من بلاء الدنيا ، وإذا عمل به مجتمع لن يظهر فيه الشقاء . بل يمتلئ بالرخاء والأمن والطمأنينة ، ومن لم يعمل به فلن يضر الله شيئاً ، بل يحصل على الشقاء ويهلك نفسه .

وحين يخاطب الحق سبحانه الذين آمنوا يوضح : خذوا منى هذا التكليف ففيه سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة ، ولهذا نجد أن الحق سبحانه وتعالى لا يذكر أمراً من أوامره بأى تكليف أو نهياً من نواهيه ، إلا مسبوقاً بقوله سبحانه : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ مثل قوله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ... (١٨٣) ﴾ [البقرة]

وقوله سبحانه :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ ... (١٧٨) ﴾ [البقرة]

وهذه التكليفات لمَ تأتِ مبنية للمعلوم ، فمن الذين يكتب ؟ إنه الحق سبحانه ، كما أنها صيغة مبنية دائماً لما لم يُسَمَّ فاعله ، أى : أن الكتابة أتت من كثير . ونقول : صحيح أن الله سبحانه وتعالى هو الذى كتب ، فلماذا لم يقل : يأيها الذين آمنوا كتبتُ عليكم . ولماذا يقول : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ ؟. ونقول : لأن الله وإن كان قد كتب ، إلا أنه لم يكتبها على كل خلقه ، بل كتبها على الذين

آمنوا به ، وأنت بإيمانك أصبحت ملتزماً بعناصر التكليف [1] ، فكأن الحق سبحانه لم يكتب ثم يلزمك ، ولكن التزامك تم فى نفس اللحظة التى دخلت فيها باختيارك فى الإيمان . وبذلك تكون كل هذه الأحكام قد كُتبتْ علينا باختيار كل منا ، فمن لم يَخْتَرْ الإيمان ليس مكتوباً عليه أن ينفذ أَحكام الإيمان ؛ لأنها لا تُنفذ إلا بالعقد الإيمانى بيننا وبين الحق سبحانه ؛ وقد احترم سبحانه دخولنا فى هذا العقد ، فلم ينسبه لذاته العلية فقط ، بل شمل أيضاً كل مَنْ دخل فى الإيمان.

ولذلك فإن سأل أحد عن حكمة التكليف من الله ، نقول له : إن الحكمة تنبع من أنه سبحانه هو الذى كَلَّف . ثم إن معرفة الحكمة لا تكون إلا من المساوى للمساوى ، فإن ذهب المريض إلى الطبيب وكتب له الدواء ، وظل المريض يناقش الطبيب فى الدواء وفوائده ؛ فالطبيب يرفض المناقشة ، ويقول للمريض : ادخل كلية الطب واقْضِ فيها سبع سنوات ، واحصل على الدرجات العلمية ، ثم تَعَالَ وناقشنى.

إذن : فأنت تربط علة التكليف بأمر المكلف ، مع أن المكلف من البشر قد يخطئ . أما إذا جئنا بمجموعة من الأطباء ليكشفوا على مريض احتار الطب فيه ، ثم جلسوا بعد الكشف يتناقشون ، فكل منهم يقبل مناقشة الآخر ؛ لأنه مُسَاوٍ له فى الفكر والثقافة والعلم إلى آخره ، لكن إنْ أردتَ أن تسأل عن الحكمة فى تكليف من الله فلن تجد مساوياً لله سبحانه وتعالى ، وبذلك تكون المناقشة مرفوضة.

(١) ويتضح هذا من حديث رسول الله ﷺ ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ لمعاذ ابن جبل حين بعثه إلى اليمن : « إنك ستأتى قوماً من أهل الكتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة . . . » الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (١٤٩٦) ومسلم (١٩). قال ابن حجر العسقلانى فى شرح البخارى (٣/٣٥٩) : « قوله : « فإن هم أطاعوا لك بذلك » أى : شهدوا وانقادوا . . واستدل به على أن الكفار غير مخاطبين بالفروع حيث دُعوا أولاً إلى الإيمان فقط ، ثم دُعوا إلى العمل ».

إذن : فالمكلف لابد أن تكون له منزلة سابقة على التكليف ، ومنزلة الحق أنك آمنت به ، ولهذا أرى أن البحث عن أسباب التكليف هو أمر مرفوض إيمانياً ، فإذا قيل : إن الله فرض الصوم حتى يشعر الغنى بألم الجوع ؛ ليعطف على الفقير ، نقول : لا ، وإلا سقط الصوم عن الفقير ؛ لأنه يعرف ألم الجوع جيداً . وإذا قيل لنا : إن الصوم يعالج أمراض كذا وكذا وكذا . نقول : إن هذا غير صحيح ، وإلا لما أسقط الله فريضة الصوم عن المريض فى قوله تعالى :

﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ... (١٨٥) ﴾ [البقرة]

فإذا كان الله قد أباح للمريض أن يفطر ، فكيف يأتى إنسان ويقول : إن علة فرض الصوم هى شفاء الأمراض ؟ كما أن هناك بعض الأمراض لا يُسْمَح معها بالصوم.

إذن : فنحن نصوم لأن الله فرض علينا الصوم ، وما دام الله قد قال فسبب التنفيذ هو أن القول صادر من الله سبحانه ، ولا شئ غير ذلك ، فإذا ظهرت حكمة التكليف فإنها تزيدنا إيماناً ، مثلما ثبت ضرر لحم الخنزير بالنسبة للإنسان ؛ لأن لحم الخنزير ملئ بالميكروبات والجراثيم التى يأكلها مع القمامة ، ونحن لا نمتنع عن أكل لحم الخنزير لهذا السبب ، بل نمتنع عن أكله لأن الله قد أمرنا بذلك ، ولو أن هذه الحكمة لم يكشف عنها الطب ما قَلَّلَ هذا من اقتناعنا بعدم أكل لحم الخنزير ؛ لأننا نأخذ التكليف من الله ، وليس من أى مصدر آخر.

ونعود إلى خواطرنا حول الآية الكريمة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾ ، ونجد كلمة : ﴿ مَا لَكُمْ ﴾ تأتى حين نتعجب من حال لا يتفق مع حال ، وكأن حرب المؤمنين للكفار

أمر متوقع وتقتضيه الحال ؛ لأن المؤمنين حين يقاتلون الكفار إنما يدخلون شيئاً من اليقين على أهل الاستقامة ، فأهل الاستقامة إن لم يجدوا من يضرب على أيدى الكافرين فقد ينحرف منهم من تراوده نفسه على الانحراف ، أما إن وجد من يضرب على أيدى الكفار ، فإنه بفعله هذا يربب فى المؤمن إيمانه ؛ لأنه يرى عدوه وهو يتلقى النكال . كأن تقول للتلميذ : ما لك تهمل فى مذاكرتك وقد قَرُبَ الامتحان ؟ أى : أن المفروض أنه إذا قرب الامتحان لابد أن يجتهد الطالب فى المذاكرة . فإن أهمل التلميذ عمله فنحن نتعجب من سلوكه ؛ لأنه لا يتفق مع ما كان يجب أن يحدث . وبذلك نستنكر أن يحدث مثل هذا الإهمال ، مثلما نستنكر ونتعجب من مريض يترك الدواء بينما هو يتألم .

ويتعجب الحق سبحانه هنا من تثاقل المؤمنين حين يُدْعَوْنَ إلى القتال ؛ لأن قوة الإيمان تدعو دائماً إلى أن يكون هناك استعداد مستمر للقتال ، وهذا الاستعداد يخيف الكفار ويمنع عدوانهم واستهتارهم بالمؤمنين أولاً ، كما أنه ثانياً يجعل المؤمنين قادرين على الرد والردع فى أى وقت . ويعطى ثالثاً شيئاً من اليقين للمجتمع المؤمن عندما يرى أن هناك من يضرب على يد الكافرين إذا استهانوا بمجتمع الإيمان وحاولوا أن يستذلوا المؤمنين .

إذن : فَلِكَىْ يبقى المجتمع المؤمن قوياً وآمناً ؛ لابد أن يوجد استعداد دائم للقتال فى سبيل الله ورغبة فى الشهادة ، وهنا يقول الحق : **﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾** فكأن الاستعداد المستمر للقتال فى سبيل الله أمر لابد أن يوجد بالفطرة وبالعقل ، فإذا ضَعُفَ هذا الاستعداد أو قَلَّ صار هذا

الأمر موطناً للتعجب ؛ لأن المؤمنين يعرفون أن مجتمع الكفر يتربص بهم دائماً ، وعليهم أن يكونوا على استعداد دائم مستمر للمواجهة ، ويستنكر الحق أن يتثاقل المؤمنون إذا دُعُوا للقتال فى سبيل الله أو أن يتكاسلوا.

وقوله سبحانه : ﴿ انفِرُوا ﴾ من «النفرة» وهى الخروج إلى أمر يهيج استقرار الإنسان ، فحين يكون الإنسان جالساً فى مكانه ، قد يأتى أمر يهيجه فيقوم ليفعل ما يتناسب مع الأمر المهيج ، فأنت مثلاً إذا رأيت إنساناً سيسقط فى بئر ، فهذا الأمر يهيجك ، فتنطلق من مكانك لتجذبه بعيداً ، ومنه النُّفْرة التى تحدث بين الأحباب الذين يعيشون فى وُدٍّ دائم ، وقد يحدث بينهم أمر يُحوِّل هذا الود إلى جَفْوة.

إذن : فكلمة ﴿ انفِرُوا ﴾ تدل على الخروج إلى أمر مهيج ، وهو المنطق الطبيعى الذى يجب أن يكون ؛ لأن عمل الكفار يهيج المؤمنين على مواجهتهم . وقول الحق سبحانه : ﴿ انفِرُوا ﴾ يدل على الاستفزاز المستمر من الكفار للمؤمنين . ويقول الحق تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ ﴾ .

والثقل معناه : أن كتلة الشئ تكون زائدة على قدرة من يحمله ، فإن قلت : إن هذا الشئ ثقيل فهذا يعنى أن وزنه مثلاً أكبر من قوة عضلاتك فلا تستطيع أن تحمله . أما التثاقل فهو عدم موافقة الشئ لطبيعة التكوين. كأن تقول : فلان ثقيل أى أن وزنه ضخم ولا يستطيع أن يقوم من مكانه إلا بصعوبة ، ولا أن يتحرك إلا بمشقة.

ولكن التثاقل معناه تكلف المشقة ، أى : لك قدرة على الفعل ، ولكنك تتصنع أنك غير قادر ، كأن يكون هناك - على سبيل المثال - شئ وزنه رطل ، ثم تدَّعى أنه ثقيل عليك ولا تستطيع أن تحمله .

إذن : فقوله تعالى: ﴿ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾ أى : تكلفتم الثقل بدون حقيقة، فأنتم عندكم قدرة على القتال ولكنكم تظاهرتم بأن لا قدرة لكم.

وهكذا نعرف أن الموقف يقتضى النفرة ليواجهوا الكفر ؛لأن المنهج الذى ارتضوه لأنفسهم والتزموا به يحقق السلامة والأمن والاطمئنان لهم ولغيرهم ، وكأن التثاقل إلى الأرض له مقابل ، فالنفرة تكون فى سبيل الله ، والمقابل فى سبيل الشيطان أو فى سبيل شهوات النفس.

لقد تحدث العلماء فى المسائل التى تجعل الإنسان يُقبلُ على المعصية ، وهى النفس التى تُحدِّث الإنسان بشئ ، فالإنسان يقبل على المعصية بهذين العاملين فقط . فما الفرق بين الاثنين ؟ وكيف يتعرف الإنسان على ذلك ؟ قال العلماء : إذا كانت النفس تُلحُّ عليك أن تفعل معصية بعينها بحيث إذا صرفتها عنها عادت تُلحُّ عليك لاقتراف نفس المعصية لتحقق متعة عاجلة ، فهذا إلحاح من النفس الأمَّارة بالسوء.

ولكن الشيطان لا يريد منك ذلك ، إنه يريدك مخالفاً لمنهج الله على أى لون ، فإذا استعصى عليه أن يجذبك إلى المال الحرام ، فهو يزين لك شهوة النساء ، فإذا فشل جاء من ناحية الخمر . إذن : فهو يريدك عاصياً بأى معصية ، ولكن النفس تريدك عاصياً بنفس المعصية التى تشتهيها. وهذا هو الفرق.

وهكذا نعرف أن هناك واقعين ، واقعاً يدعو المؤمنين إلى قتال الكفار الذين يفسدون منهج الله فى الأرض ، وواقعاً يدعوهم إلى أن يتثاقلوا عن هذا القتال ، وذلك إما بسبب حب الدنيا لتحقيق شهوة النفس أو إغراء الشيطان ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ ﴾ والرضا هو حب القلب ، فيقال : فلان راضٍ لأنه مسرور بالحال الذى هو فيه.

ومعنى تثاقل المؤمنين عن القتال فى سبيل الله ، أن هناك شيئاً قد غلب شيئاً آخر فى داخل نفوسهم ، فالرضا بالحياة الدنيا قد تغلَّبَ على حب الآخرة . ولكن المنطق الإيمانى يقول : إنه إذا كان هناك أمر آخر غير الدنيا ، أو حياة أخرى غير حياتنا الدنيوية ، فلابد أن نقارن بين ما تعطيه الدنيا وبين ما تعطيه الآخرة ، فإذا رضينا بما تقدمه لنا هذه الحياة المادية ، يكون المؤمن بلا طموح وبلا ذكاء ؛ لأنه رضى بمتاع قليل زائل وترك متاعاً أبدياً ممتداً بقدرة الله.

وأنت لو نظرت إلى الدنيا نظرة فاحصة ، تجد أنها متغيرة متبدلة ، فالصحيح يصبح مريضاً ، والغنى يصبح فقيراً ، والقوى يصبح ضعيفاً.

إذن : فمتاع الدنيا متغير ولا عصمة لك فيه ، وأنت لا تستطيع أن تعصم نفسك من المرض أو من الضعف أو من الفقر ؛ لأن هذه كلها أغيار تحكمك ولا تحكمها أنت ؛ تقهرك ولا تستطيع أنت أن تقهرها . فإن رضيت بمتاع الدنيا اليوم فأنت لا تضمن استمراره إلى غد.

ولهذا ينبغى ألا تؤخر تنفيذ ما يكلفك به الله ؛ لأنك الآن تستطيع أن تؤديه ، لكن أنت لا تضمن إن كنت قادراً غداً أم لا [1] . كذلك لا تأخذ التكليف على أنه قد يسلبكَ حريتك أو مالك ، بل هو يسلبك ويعطيك فى نفس الوقت. فإذا أمر الله سبحانه بأن تُخرجَ الزكاة ، قد تعتقد أن هذا يُنقصُ مالك [2] ، أو تقول : هذه غرامة. نقول : إن هذا فى ظاهر الأمر قد

(١) عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه : « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤/٣٠٦) وصححه على شرط الشيخين ، وأقره الذهبى . وقد أخرجه ابن المبارك فى الزهد (٢) من حديث عمرو بن ميمون مرسلاً بسند صحيح ، قاله ابن حجر فى الفتح (١١/ ٢٣٥) .

(٢) عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » أخرجه مسلم (٢٥٨٨) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٣٥ ، ٣٨٦) والترمذى فى سننه (٢٠٢٩).

يكون صحيحاً ، ولكنه سبحانه يأخذ منك هذا المال فيزيده لك ويُنميه [1] فإذا بالجنيه الواحد قد تضاعف إلى سبعمائة مثْل ، ثم تضاعف إلى ما شاء الله ، كما أن هذا الحكم الذى يأخذ منك الآنَ وأنت غنى ، هو بذاته الذى سوف يعطيك إن افتقرتَ ولجأت إلى الناس. فإذا كان الحكم الذى سيأخذ هو الذى سيعطى تكون هذه عدالة وتأميناً ضد الأغيار ، وعليك أن تقارن الصفقة النفعية بمقابلها ، وساعةَ تعطى أنت الذى لا يملك، لابد أن تتذكر أنه قد يأتى عليك يَوْمٌ لا تملك فيه.

وكلمة دنيا بالنسبة لحياتنا أعطتنا الوصف الطبيعى الذى ينطبق عليها ؛ لأن "الدنيا "مقابلها "العليا ". والحياة العليا تكون فى الآخرة . فإذا كانت هذه هى الحياة الدنيا . فلماذا تربط نفسك بالأدنى إلا أن يكون ذلك خَوَراً فى العزيمة ؟

والمثال للقوة الإيمانية هو : سيدنا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وكان قبل أن يصبح خليفة المؤمنين يرتدى أفخر الثياب ويتعطر بأجمل العطور ، وكان الناس يدفعون أموالاً لمن يغسل ثياب عمر بن عبد العزيز ليدخلوا ثيابهم مع ثيابه حتى تمتلئ عطراً . وذلك من غزارة وجود العطر الذى كان يضعه عمر بن عبد العزيز على ثيابه فتخرج كل الثياب مليئة بالعطر . وعندما أصبح عمر بن عبد العزيز خليفة ، كانوا يأتونه بالثوب الخشن الذى كان يرفض ارتداءه قبل الخلافة ، فيرفضه ويقول : هاتوا أخشن منه ، وامتنع عن العطر ، أى : أن معاييره قد تغيرت وليس فى هذا أدنى تناقض ، بل هو علو فى الحياة ، ولذلك قال : اشتاقت نفسى إلى الإمارة فقلت لها : اقعدى يا نفسُ ، فلما نلْتُهَا اشتاقت نفسى إلى الخلافة فنهيتها عن ذلك ، فلما نلْتُها ؛ أى نال الخلافة ، اشتاقت نفسى إلى الجنة فسلكتُ كل طريق يؤدى إليها [2].

(١) انظر إلى قول رسول الله ﷺ : « لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب إلا أخذها الله تعالى بيمينه، فيربيها كما يربى أحدكم فلوه (مهره) أو قلوصه (الفتية من الإبل) حتى تكون كالجبل أو أعظم » وهو حديث متفق عليه من حديث أبى هريرة ، أخرجه البخارى (١٤١٠) ومسلم (١٠١٤).

(٢) أورد هذا الأثر أبو نعيم الأصفهانى فى حلية الأولياء (٥/ ٣٣١).

وهكذا نعرف أن سلوكه رضى الله عنه لم يكن فى تناقض بل تعلية للصفقة الإيمانية . كان دائماً فى علو يريد أن يواصله ، فقد اشتاق أولاً إلى الإمارة ، فلما تحققت أراد أن يعلو فاشتاق للخلافة ، فلما تحققتْ أراد أن يعلوَ فاشتاق إلى الجنة ، إذن : فهو دائماً فى عُلُوٍّ .

وأقول : ليس فى سلوكه أدنى تناقض ؛ لأن علماء النفس يفسرون التناقض فى السلوك البشرى على أنه اختلاف فى المقارنة ، فالإنسان يقارن بشئ ثم يقارن بشئ آخر وهكذا ؛ لأن كل شئ فى الدنيا نسبى . ومعنى النسبية أن ينسب الشئ لما حوله ، فإذا قلت : إننى أسكن فوق فلان ، فأنت فى نفس الوقت تسكن تحت فلان الذى يعيش فى الطابق الذى يعلوك .

إذن : فأنت فوق فلان وتحت فلان فى نفس الوقت ، فلا تأخذ نقطة وتغفل عن الأخرى ، وهذا اسمه "معنى إضافى" أى : أن المعانى لا تتحقق بذاتها ، ولكن بالنسبة إلى شئ تقاس به ، وكذلك المقاييس بين الأشياء يجب أن نقيسها بالأمور التى تُصعد لك القيمة . فأنت إذا نظرت إلى الدنيا ؛ تجد أن الحق سبحانه أسماها : دُنْيا ولم يجد اسماً أقلَّ من هذا ليسميها به ، لماذا ؟ لأنك تتنعم فى الدنيا على قدر وجودك فيها ، أى على قدر عمرك ، وهو مهما زاد وطال فهو سنوات معدودة ، وقد يكون متاعك منها حتى سنِّ الثلاثين أو الأربعين أو الخمسين . أو أكثر من ذلك أو أقل . ومتاعك فيها بما تحققه قدراتك ، فالذى عنده ألف جنيه يتمتع على قدرها ، والذى عنده عدة ألوف متاعه على قدرها ، وصاحب الملايين متاعه أكبر .

إذن : فكل واحد يتمتع بقدر ما عنده من مال . وحتى إن وصل الإنسان إلى أعلى متاع فى الدنيا ؛ متاع صاحب الملايين ، فهذه الملايين إما أن تزول عن صاحبها ، وإما أن يترك هو هذه الملايين بالموت . وهذه تتحقق وهذه تتحقق . إذن : فنعمة الدنيا إما أن تنخلع منك أو تنخلع أنت منها .

فإذا جئتَ إلى المقابل وهو الآخرة تجد أن النعيم فيها دائم لايزول عنك ، وأنت خالد لا تزول عن النعمة بالفناء أو الموت ، وأنت لا تتمتع في الآخرة بقدراتك أنت ، بل بقدرة الله سبحانه . فكأن المتاع أكبر كثيراً من قدرتك ، وأعلى كثيراً من كل ما تستطيع أن تحققه. فمثلاً : إن كان معك ريال وجاءك رجل فقير فأعطيته له ليأكل به ، تكون في ظاهر الأمر قد آثرتَ الفقير على نفسك ؛ لأنك أعطيته كل ما تملك ليأكل به وحرمت نفسك منه ، ولكنك في الحقيقة فضَّلْتَ نفسك على الفقير ؛ لأنك أعطيته هذا الريال ليكون عند الله عشرة إلى سبعمائة ضعف ، فمَنْ منكما الذى استفاد ؟ ومَنْ منكما الذى انتفع ؟ إنه أنت.

ولذلك نجد أن الدين الصحيح ضد الأنانية الحمقاء ، ويُعْلى فيك الأنانية العاقلة بأن يجعلك تحب نفسك حباً أعلى. فأنت حين تتصدق تحب نفسك ، ولذلك تريد أن تعطيها الأعلى والأنفع . فظاهر الأمر أنك أعطيت ، وفي حقيقته أنك قد أخذت . وأنت حين تعطى إنساناً مساوياً لك كأن تقدم له هدية في مناسبة معينة ، تنتظر أن يرد إليك الهدية بمثلها في مناسبة أخرى . إذن : فالعطاء مُتَساو ، وقد يرد هذا الإنسان الهدية ، وقد لا يردها . وقد ينوى ردها ولكن تصادفه ظروف لا تُمكِّنه من أن يردها لك. لكن الحق سبحانه يقول:

﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً...(٢٤٥)﴾ [البقرة]

إذن : فحينما تعطى ابتغاء وجه الله فأنت لاتحصل على عطاء مُسَاوٍ لما أعطيت . لكنك تحصل على عطاء مضاعف أضعافاً مضاعفة . والذى يعطيك الثواب هو الله سبحانه وتعالى دائم الوجود ، ولن ينفد عطاؤه لك ؛ لأنه دائم القدرة ، ولن يأتى عليه وقت يكون غير قادر على أن يرد

لك ما أعطيت ؛ لأن عنده كنوز السماوات والأرض ؛ وهو سبحانه قادر على أن يضاعف لك مهما كانت قيمة عطائك . فإن فضَّلْتَ الحياة الدنيا على الآخرة ، فأنت تقيس بمقاييس الكمال عندك وهى مقاييس ساقطة وهابطة ، ولو كنت تملك المقياس الصحيح لعرفتَ أن الذى يحقق لك النفع الأكبر هو أن تعطى وتعمل طلباً للآخرة وليس للدنيا . ولذلك فالحق سبحانه يقول هنا : ﴿ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ ﴾ أى : أنكم أردتم الحياة الدنيا بدل الآخرة . وهذه مقارنة غير عاقلة وغير حكيمة.

وكلمة ﴿ مِنَ ﴾ تدل على البدل فى قوله : ﴿ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ومادة البدل والاستبدال البيع والشراء ، ونعرف أن الباء تدخل على المتروك ، فأنت تقول: اشتريت الشىء بكذا درهم ،أى : تركت الدراهم مقابل شرائك الشىء ، كأن هؤلاء الراضين بالحياة الدنيا قد أخذوا الدنيا بدلاً من الآخرة ، وهذه صفقة تخلو من العقل والحكمة .

وبعد أن استنكر الله سبحانه وتعالى على المؤمنين أن يرضوا بالحياة الدنيا ويتركوا الآخرة يقول سبحانه: ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ والمتاع : هو ما يستمتع به . والإنسان لا يستطيع أن يوقن أنه سيستمتع بالحياة ، وهذا أمر مطعون فيه ، فليس كل كائن حى مستمتعاً بالحياة ، هناك أشقياء وهناك تعساء ، وهناك مَنْ حياتهم كلها تعب ، وحتى أولئك المستمتعون بالحياة فى الحاضر ، مَنْ يُدريهم ماذا يحمل المستقبل لهم ؟ ألا يمكن أن يكون استمتاعهم هذا وقتياً ؟ ألا يمكن أن يأتيهم ظرف من الظروف ؛ أو قدر من الأقدار يملأ حياتهم بالشقاء ؟

إننا نجد العقلاء - حين يرون فى نعمة الله عليهم ما يكدر حياتهم - يشكرون الله ، بينما نجد الإنسان السطحى التفكير والفهم يستاء وينفعل ويزيد الموقف معاناة . العاقل - إذن - يعرف أن الإنسان يعيش فى دنيا

أغيار ، ومعنى أننا نعيش فى دنيا أغيار أنه تأتى أحداث تنقلنا من حال إلى حال ، أى من الغنى إلى الفقر . أو من الصحة إلى المرض إلى غير ذلك من أحوال الدنيا المتقلبة المتغيرة ، ففى الدنيا لا يدوم حال ، وما دامت الدنيا أغياراً ؛ فأحوال الناس تتغير فيها دائماً .

وهَبْ أن إنساناً وصل إلى القمة التى لا يوجد أعلى منها . نقول له : لا داعى أن يأخذك الفرح والكبر والخيلاء ، ولا تنس أنك تعيش فى دنيا أغيار ، وأن دوام الحال من المحال ، فلو دامت لغيرك ما وصلتَ أنت إلى القمة ؛ لأن مَنْ كان عليها سقط فصعدتَ أنت .

إذن : فمعنى هذا أنك وإن وصلتَ للقمة فلن تثبت عليها وتبقى هكذا بلا تغيير . وما دمتَ قد وصلت إلى أعلى ما يمكن ، فالتغيير الوحيد الذى يمكن أن يحدث لك هو أن تنزل ؛ لأنك وصلت إلى قمة الصعود ، ولم يَعُدْ بعدها شىء تصعد إليه . فالتغيير المتوقع لابد أن يكون إلى أسفل ، ويقال : « ترقَّبْ زَوالاً إذا قيل تَمّ » ، ولهذا نجد أهل الحكمة والبصيرة يقولون : إن المصائب فى الأموال والأنفس من تمائم النعمة ، وكأن الحق لا يريد أن يتمم النعم ؛ لأنها إن تمت تزول ؛ لأن المصيبة ما دامت قد حدثت فلابد أن تزول .

وسبحانه حين يقول : ﴿ **فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾ يريد أن يبين لنا أن متاع الآخرة أكبر ، فأنت حين تقول : شىء فى شىء . فأيهما يكون أكبر ؟ إنه الذى يدخل فيه الشىء الآخر ، فإذا قلنا : فلان فى البيت ، فمعنى ذلك أن البيت أكبر من فلان هذا ، وإلا لما احتواه داخله . وإن قلنا : محمد فى جدة أو فى المملكة السعودية أو فى مصر ؛ يكون هناك ظرف ومظروف ، والمظروف عادة أوسع من الظرف ، وسعته كبيرة لدرجة أنها تحيط بالظرف من كل جوانبه .

وقول الحق سبحانه : ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ معناه : أن متاع الدنيا يتوه فى متاع الآخرة ؛ لأن متاع الآخرة أوسع ويحتوى متاع الدنيا ويزيد ، وما دام الكلام بقدرة الله سبحانه وتعالى ، فمعنى ذلك سعة متاع الآخرة بالنسبة لمتاع الدنيا لا نهائية . فإذا زاد الحق سبحانه وقال : ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ فهو لإعطاء صورة لسعة متاع الآخرة.

لكن هذا الاستثناء فى قوله تعالى ﴿ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ إنما هو لمخاطبة العقول بالنسبة لقمة المتمتعين فى الدنيا .

ومثال هذا : أنك تجد إنساناً قد أعطاه الله قمة متاع الدنيا ، وتجده يعتقد أن المتاع لايمكن أن يزيد على ما وصل إليه ، فيوضح الحق سبحانه وتعالى له: لو أنك متمتع بكل ما تستطيع أن تعطيه لك الدنيا فهو بالنسبة لمتاع الآخرة قليل.

وإذا كان غير المتمتع بشىء من متاع الدنيا ينظر إلى مَنْ أعطاه الله سبحانه وتعالى قمة متاع الدنيا ويتساءل : هل هناك متاع أكثر من ذلك ؟ إن هذا الإنسان متمتع بكذا وكذا وكأنه يعيش فى الجنة ، ولا أعتقد أنه يمكن أن يكون هناك متاع أكثر من هذا . نقول له: لا، إن ما تحسبه نهاية لما يمكن أن يتمتع به الإنسان هو بالنسبة لمتاع الآخرة قليل.

إذن : فقوله سبحانه ﴿ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ ليس مقصوداً به المتعة العادية للدنيا التى يتمتع بها الناس ، ولكن المقصود به متاع القمة الذى لا يصل إليه ولا يحدث إلا لأفراد قليلين فى العالم . فقد يعيش إنسان فى قصر ضخم ، وحوله المئات من الناس يخدمونه ، وعنده من الأجهزة الإلكترونية وغيرها ما يجعله بمجرد أن يريد شيئاً يضغط على زر صغير فيجد ما يريده

أمامه ، وكل شيء حوله يحقق له رغباته ، بل إنه يعيش فى درجة الحرارة التى يريدها داخل قصره ، وعنده أفخر أنواع الطعام والشراب ، وإذا أراد أن ينتقل من مكان إلى آخر ؛ ضغط على زر فيتحرك به الكرسى إلى المكان الذى يريده ، وكل مَنْ حوله يطيعونه طاعة عمياء ، فكل رغباته أوامر ، وحياته تشبه الحلم الجميل .

إذا عاش إنسان فى هذا الجو وانبهر بهذه النعم كلها يستوقفه رب العزة سبحانه ويوضح له: لا تنبهر ، فهذا المتاع الذى تعيش فيه بالنسبة للآخرة قليل.

فإذا قرأ الناس أو سمعوا أو شاهدوا ما يعيش فيه هذا الإنسان من متعة وانبهروا بها ، يوضح لهم الله : لا تنبهروا ولا يأخذكم العجب ، فكل هذا الذى ترونه أمامكم بالنسبة لمتاع الآخرة قليل .

إذن : فقوله سبحانه ﴿ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ يدل على أن فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتحب القليل من النعم بل تريد الكثير ، ولهذا نجد الحق سبحانه وتعالى يُنفِّر عباده من أن تفتنهم نعم الدنيا مهما بلغت ، فيوضح لهم: لا تظنوا أن هذه النعم كثيرة ، بل إنها نعم قليلة بالنسبة لما ينتظركم فى الآخرة ، فإذا كان الإنسان بفطرته يحب كثرة النعم ، ففى هذه الحالة لن تفتنه نعم الدنيا ، بل سوف يطلب نعم الآخرة . ورسول الله ﷺ يقول: « لو أن ابن آدم أعطى وادياً ملآن من ذهب أحبَّ إليه ثانياً ، ولو أعطى ثانياً أحب إليه ثالثاً »[1]

أى: أن الإنسان الذى امتلك واديين يريد أن يحتفظ بالواديين كما هما ويطمع فى امتلاك الوادى الثالث ، رغم أنه قد لا يعيش لينفق مقدار وادٍ واحد . فالإنسان بطبعه لا يحب القليل من النعم بل يطلب الكثير ،

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٣٨) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (١/ ٣٣٧) عن عبد الله بن الزبير .

لماذا ؟ لأن كثيراً من الناس ينسون الآخرة ، ويعتقدون أن هذه الحياة الدنيا هى كل شىء ، ولهذا تجد الإنسان منهم يريد أن يحتاط لنفسه ، فإذا أخذ ما يكفيه يريد أن يحتاط لأولاده ، فإذا كان عنده ما يكفيه هو وأولاده يريد أن يحتاط لأحفاده . ولكن المؤمن الحق هو من يعرف أن الحياة الدنيا طريق العبور إلى الآخرة ، وأنها رحلة قصيرة تنتهى ، فلا يهتم بهذا اللون من الاحتياط ، ولكن الذى يحرص على عملية الاحتياط هذه هو من يظن أن الحياة الدنيا هى الغاية من الخلق ، ولا يتنبه إلى أنها وسيلة للآخرة.

إننا نجد أولئك الذين يسرفون على أنفسهم ويتبعون شهواتهم وهم يحاولون أن يأخذوا من الدنيا كل شىء يمكن أن تعطيه لهم حلالاً أو حراماً ، وهذا واضح فى سلوكهم الدنيوى.

أما المؤمن فهو كالطالب الذى يَجِدُّ فى دروسه ويجتهد ويستيقظ مبكراً ويذهب إلى المدرسة ، ويظل ساهراً ليذاكر ويحرم نفسه من مُتَع كثيرة ؛ لأنه بفطنته وذكائه يعرف أن هذا حرمان مؤقت . وهو إنما يفعل ذلك لفترة قصيرة ليستريح بقية العمر ، ويحصل على المركز المرموق والدخل المرتفع إلى آخر ما يمكن أن يعطيه له المستقبل . أما المسرف على نفسه فهو كالطالب الذى لا يذهب إلى المدرسة ويقضى وقته فى اللعب والاستمتاع ، وهو بمثل هذا السلوك كان قصير النظر ، وأعطى لنفسه شهوة عاجلة ليظل فى معاناة بقية حياته.

إذن : فكل من الطالبين أعطى نفسه ما تريد ؛ الأول : أعطى نفسه مستقبلاً مريحاً ممتداً ، وصار قمة من قمم المجتمع ، والثانى : أعطى نفسه متعة عاجلة زائلة ، ثم صار بعد سنوات قليلة صعلوكاً فى المجتمع لا يساوى شيئاً.

إذن : فإياك أن تنظر تحت أقدامك فقط ؛ لأن العالم لا ينتهى عند موقع وقوف قدميك هاتين ، ولكنه ممتد إلى آفاق بعيدة ، فإذا نظرتَ إلى هذه الآفاق ، فلا يليق بك أن تختار متعة وقتية قليلة .

وقول الحق سبحانه :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) ﴾

[التوبة]

نزل فى غزوة تبوك [1] ، وهى أول غزوة للمسلمين مع غير العرب ، وسبقتْها كل المعارك بين المسلمين وبين الكفار والمشركين ، ودارت على أرض الجزيرة العربية معارك مع المشركين في بدر أو فى مكة ، أو مع اليهود فى مجتمع المدينة ، فقد كانت هذه معارك فى محيط الجزيرة العربية ، ولكن غزوة تبوك كانت مع الروم على الحدود الشمالية للجزيرة العربية . وحينما بدأ تجهيز الجيش ليذهب إلى تبوك لمحاربة الروم تثاقل المسلمون . وهنا يبرز استفهام : كيف يحارب المسلمون الروم ، وهم الذين حزنوا حين انتصر الفرس على الروم ؟ أيحزن المسلمون لهزيمة الروم ثم يذهبون ليحاربوهم ؟

نقول : نعم ؛ لأن المواقف الإيمانية ليست مواقف فى قالب من حديد ، ولكنها تتكيف تبعاً لمواقف الكفار من الإيمان والإسلام .

ولذلك فإن المؤمن الحق ينفعل للأحداث انفعالاً إيمانياً ، وعلى سبيل المثال ، نجد قلب سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه مملوءاً رقة ورحمة ،

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٤/ ٣٠٦٦) : « لا خلاف أن هذه الآية نزلت عتاباً على تخلُّف من تخلَّف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام » .

بينما قلب سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان مملوءاً قوة وحزماً ، انظر إلى موقف الاثنين عندما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ؛ وارتد عدد من المسلمين عن الإسلام ، ومنعوا الزكاة ؛ وقرر أبو بكر الصديق رضى الله عنه أن يحارب هؤلاء المرتدين ؛ لأنهم أنكروا ركناً من أركان الإسلام ، هنا وقف عمر بن الخطاب ضد رأى أبى بكر وقال : يا أبا بكر أنحارب أناساً شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فقال أبو بكر : أجبار يا عمر فى الجاهلية خوّار فى الإسلام ؟ و الله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه [1] .

وهكذا انقلبت المواقف ؛ فالقوة والشدة ملأت قلب أبى بكر الذى كان مشهوراً بالرقة والرحمة والعطف ، بينما امتلأ قلب عمر باللين ، وهو المشهور بالشدة والقوة . ولو أن عمر هو الذى قال كلمة أبى بكر لقالوا : شدة ألفها الناس من عمر .

ولكن الناس قالوا عن عمر الشديد : « قد لانَ قلبه بينما اشتد قلب أبى بكر » هذه هى المواقف الإيمانية التى تملأ نفس كل مؤمن . فالذى يصنع موقف المؤمن هو إيمانه لا طبعه ؛ ولذلك قال الحق فى وصفه للمؤمنين :

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ... (٥٤) ﴾ [المائدة]

(١) عن ضبة بن محصن الغنوى قال : « قلت لعمر بن الخطاب : أنت خير من أبى بكر فبكى وقال : والله لليلة من أبى بكر ويوم خير من عُمْر عمر ، هل لك أن أحدثك بليلته ويومه؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين . قال : أما يومه فلما توفى رسول الله ﷺ وارتدت العرب فقال بعضهم : نصلى ولا نزكى . وقال بعضهم : لا نصلى ولا نزكى ، فأتيته ولا آلوه نصحاً . فقلت : يا خليفة رسول الله تألّف الناس وارفق بهم . فقال : جبار فى الجاهلية خوار فى الإسلام ، فبماذا أتألفهم ؟ أبشعر مفتعل أو سحر مفترى؟ » الحديث أورده المتقى الهندى فى منتخب كنز العمال (٤/ ٣٤٩) وعزاه للدينورى فى المجالسة ، وأبى الحسن بن بشران فى فوائده ، والبيهقى فى دلائل النبوة ، واللالكائى فى السنة .

وكيف يكون الإنسان عزيزاً وذليلاً في الوقت نفسه ؟ وكيف يوصف الشخص نفسه بأنه عزيز وذليل ؟ وكيف يمكن أن يجتمع النقيضان في شخص واحد ؟ لكنك تقرأ ما يطمئنك في قول الحق:

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ.. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح]

لقد وصف الحق سبحانه المؤمنين بأنهم أشداء ، ووصفهم أيضاً بأنهم رحماء ، ولكي تفهم هذا المعنى عليك أن تعلم أن المواقف الإيمانية هي التي تحدد مشاعر المؤمن ، ولا تحددها طباعه الخاصة والشخصية ، وهو يُكيِّف مواقفه حسب الموقف الإيماني وما يتطلبه ، فهو شديد ورحيم ، وذليل وعزيز .

ونعود إلى غزوة تبوك التي نزلت فيها الآية التي نتناولها بخواطرنا وإلى السؤال: كيف يحارب المسلمون الروم ، وقد حزنوا يوم هزيمة الروم من الفرس ؟ ونقول: لقد حزن المسلمون لأن إلحاداً ينكر الألوهية قد انتصر على إيمان مرتبط برسالات السماء ؛ ولأن الروم - وهم نصارى - مرتبطون برسالات السماء . ولذلك فهم أقرب إلى قلوب المؤمنين من الكفار ، إذن: فالمسألة قد أُخذَتْ من ناحية الوجود الإلهي . أما في غزوة تبوك فقد أُخذَتْ من ناحيةَ قبول المنهج الناسخ ومنع الدعوة له ، ولهذا تحول الموقف في غزوة تبوك إلى عداء إيماني ، وهذا هو السبب الذي أدَّى إلى الحرب [١].

(١) قال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري (٨/ ١١١): « كان السبب فيها ما ذكره ابن سعد وشيخه وغيره قالوا: بلغ المسلمين من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم جمعت جموعاً، وأجلبت معهم لخم وجذام وغيرهم من متنصرة العرب، وجاءت مقدمتهم إلى البلقاء، فندب النبي ﷺ الناس إلى الخروج، وأعلمهم بجهة غزوهم ».

فإذا نظرنا إلى الغزوة نفسها نجد أن تبوك تبعد عن المدينة بمسافة كبيرة ، ووقت الغزوة كان صيفاً شديد الحرارة ، كما أنها كانت بعد غزوة حنين التى قاتل المؤمنون فيها قتالاً شديداً . وكان العام عام عسرة ، فلم يكن مع الجيش ما يكفيه من طعام أو خيل أو جمال.

إذن : فقد اجتمعت المشقة فى هذه الغزوة ؛ مع حرارة الجو ؛ وبُعْد المسافة ، وكانت قوى المسلمين مُنْهكَة من غزوة حنين . وكان رسول الله ﷺ إذا أراد الخروج لغزوة ، لا يخبر عنها أصحابه إلا عندما يصلون إلى مكان القتال ؛ إلا هذه الغزوة فقد بيَّنها رسول الله ﷺ لصحابته قبل أن يغادروا المدينة ؛ لكى يستعدوا للمشقة التى تنتظرهم . وتباطأ المسلمون ، وبعضهم كان يستمتع بالجلوس فى ظل البساتين الموجودة فى المدينة ويأكل من ثمارها . واستطاب - هذا البعض - الثمار والظلال ؛ لذلك تباطأوا فى الذهاب إلى القتال ، فنزلت هذه الآية ببيان اللوم ، ثم جاءت الآية التى بعدها لتوضح وتُبيِّن العقوبة ، فقال الحق:

﴿ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

أى : إن لم تذهبوا إلى القتال فإن الله ينذركم بالعذاب . وإذا أنذر الحق فلا بد أن يتحقق ما أنذر به ، فأنتم إن لم تنفروا مخافة العذاب المظنون ، وهو الإرهاق والتعب ، فما بالكم بالعذاب المحقق إن لم تنفذوا أمر الله بالنَّفْرة إلى القتال؟ وإذا كانت المقارنة بين مشقة السفر والقتال والحر

الشديد ، وبين عذاب الله ، فالمؤمن سوف يختار - بلا شك - مشقة الحرب مهما كانت ؛ لأن كل فعل إنما يكون بقياس فاعله ، فمظنة العذاب بالحر ، أو مشقة السفر ، وقسوة القتال لا يمكن قياسها بعذاب الله ؛ لأن العذاب الذى ينتظر مَنْ يتباطأ أو يفرُّ من الزحف أكبر من مشقة الاستجابة للزحف مهما كانت مرهقة .

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ إذن : فلا تظنوا أنكم بتباطئكم ؛ وعدم رغبتكم فى القتال ستضرون الله شيئاً ؛ لأن الله قادر على أن يأتى بخلق جديد ، وهو على ذلك قدير ، لذلك يقول: ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم (٣٨) ﴾ [محمد]

فلا تظنوا أنكم بما معكم من ثراء أو قوة قادرون على عرقلة منهج الله بالبخل أو التخاذل ؛ لأنه سبحانه قادر على أن يستبدلكم بقوم غيركم ، يملكون حمية القتال والتضحية فى سبيل الله ؛ لأنه القادر فوق كل الخلق .

وقوله سبحانه: ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ هو حيثية للأحكام التى سبقتها من قوله: ﴿ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ﴾ وإن ظن واحد منهم أن هذا كلام نظرى ، فالحق سبحانه يضرب لهم المثل العملى من الواقع الذى شاهدوه وعاصروه حينما اجتمع كفار قريش ليقتلوه فنصره الله عليهم ، فقال جل جلاله :

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ
لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ
سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا
وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ
وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

ووقف المستشرقون عند قول الحق سبحانه : ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ وكعادتهم - كمشككين في الإسلام - نجدهم يبذلون جهداً كبيراً في محاولة التصيد لأخطاء يتوهمونها في القرآن الكريم فيقولون : إن مهابة القرآن وقدسيته عندكم أيها المسلمون لا تُمكّن أذهانكم من الجراءة اللازمة للبحث في أساليبه ؛ لتكتشفوا ما فيه من الخلل . ولكن إن نظرتم إلى القرآن ككتاب عادي لا قداسة له فسوف تجدون فيه التضارب والاختلاف .

وخصص المستشرقون باباً كبيراً للبحث في مجال النحو بالقرآن الكريم ، وجاءوا إلى مسألة الشرط والجزاء ، ومن يقرأ نقدهم يتعرف فوراً على حقيقة واضحة هي جهلهم بعمق أسرار اللغة العربية ، فهم قد أخذوا ظاهر اللغة العربية ، ولا يملكون فيها مَلَكة أو حُسْن فهم ، وقالوا: إن أساليب الشرط في اللغة العربية تقتضي وجود جواب لكل شرط ، فإن قلت: إن جاءك زيد فأكرمه ، تجد الإكرام يأتي بعد مجيء زيد ، وإن قلت: إن تذاكر تنجح ، فالنجاح يأتي بعد المذاكرة . إذن: فزمن الجواب متأخر عن زمن الشرط .